الأهرام

المصدر: العربى

التاريخ : ٢٠ فبراير ٢٠٠٥

المستقبل المجهول فى لبنان

حادث الاغتيال الذى تعرض له رفيق الحريرى رئيس الوزراء اللبنانى السابق البالغ من العمر ٦١ عاما، وأدى الى مقتله، يأتى ليس بعيدا عن التطورات التى تشهدها الساحة اللبنانية من تصعيد تقوم به جهات معروفة بولاءاتها وتوجهاتها الرافضة للعلاقات بين الشقيقتين لبنان وسوريا، والحادث ايضا ليس بعيدا عن الضغوط التى تمارسها الولايات المتحدة وفرنسا واسرائيل ضد سوريا بأشكال مختلفة.. وجاءت لحظة الوداع فى وسط بيروت والتى نجح بجدارة فى إعادة بنائها بعدما دمرتها الحرب الاهلية.. وكان الحريرى ذكيا عندما قرر مؤخرا القفز من سفينة أهل الحكم فى لبنان، عقب التمديد لرئيس الجمهورية العماد إميل لحود لمدة ثلاث سنوات إضافية، وهو ما عارضه الحريرى فى البداية، لكنه عاد وترأس جلسة الحكومة التى أقرت هذا التمديد.

وأرجع البعض الاستقالة التى قدمها الحريرى إلى معلومات نقلها إليه صديقه الرئيس الفرنسى جاك شيراك بشأن وجود إصرار دولى على تغيير قواعد اللعبة السياسية فى لبنان والحد من نفوذ سوريا، وعلى إثر ذلك فضل الحريرى الانسحاب من الملعب، والجلوس على دكة المعارضة، انتظارا لاستدعاء جديد، كان يؤمن انه سيحدث حتما فى يوم قريب، كونه كان يعلم أنه خيار سوريا المفضل، رغم أنه قد لا يكون الاحب إلى قلب المسئولين السوريين، فالرجل كان الاقدر على ضبط توازنات فسيفساء الخريطة السياسية اللبنانية، ذات المصالح والعلاقات المتضاربة والمعقدة.

إن هذا الكوكتيل الذى تجمع للحريرى، جعله يغير ملامح الخريطة السياسية للسنة فى لبنان، حيث نجح فى الانتخابات البرلمانية الاخيرة عام ٢٠٠٠، والتى خاضها فى إطار ما عرف بلائحة المستقبل، فى الاطاحة بالسياسى المحنك سليم الحص، الذى فقد مقعده البرلمانى أمام فتاة شابة ترشحت على قائمة الحريرى، كما استطاع تثبيت نفوذه فى مدينة طرابلس الشمالية المعقل التقليدى لآل كرامى، وعقيلهم الرئيس الحالى عمر كرامى.

ويرى الكثير من المراقبين أن التحول فى شخصية الحريرى والاهتمام بالشئون اللبنانية قد بدأ مبكراً، وبدأ ظهوره "السياسى" على ساحة الأحداث عام ١٩٨٢ لكن من الباب الاقتصادى، حيث يتذكره اللبنانيون جيداً بمساهمته فى إزالة الآثار الناجمة عن الاجتياح الإسرائيلى للبنان ووصوله إلى العاصمة بيروت.. وفى سبيل إيقاف الحرب الأهلية اللبنانية التى اندلعت عام ١٩٧٥ أسهم فى الإعداد لمؤتمر لوزان عام ٨٤، كما أنه مهندس اتفاق الطائف الذى وضع حدا عام ١٩٨٩ لسنوات الحرب الاهلية الطويلة، وتمكن من ان يفرض نفسه على الساحة اللبنانية باعتباره رجل الحلول الوسط، الى ان تقلد منصب رئاسة الوزراء عدة مرات فى عهد الرئيسين الياس الهراوى والعماد اميل لحود، لمدة عشر سنوات من ١٩٩٢ الى ١٩٩٨ ثم من ٢٠٠٠ الى ٢٠٠٤، وأطلق من خلال وجوده فى الحكم أكبر عملية إعمار وتحديث فى لبنان، وكان من أبرز سماتها إعادة إعمار وسط العاصمة اللبنانية بيروت والتى بدأت عام ١٩٩٤

وبالتالى فالذين اغتالوا رفيق الحريرى كانوا يدركون جيداً ما يفعلونه، كونه طرفا أساسيا فى المعادلة السياسية اللبنانية الراهنة، الناشئة بعد اتفاق الطائف الذى كان الحريرى أحد أبرز صناعه، ودوره مهم وحاسم سواء كان على رأس الحكومة اللبنانية أو خارجها، لذا أرادوا بتصفيته الاخلال بهذه المعادلة والدفع بلبنان فى أتون فتنة طائفية أو حتى مخاطر حرب أهلية جديدة، وإرباك الوضع اللبنانى برمته وهو الذى بالكاد يتعافى من محنة حربه الأهلية الطويلة.

وفى الآونة الاخيرة التقت حركات وقوى عديدة فى الساحة اللبنانية مدعومة من جهات دولية تطالب بفك العلاقة بين سوريا ولبنان مهددة بتصعيد اشكال مقاومة ذلك، ولاقت هذه الجهات دعما من واشنطن وباريس وقيادات دينية مسيحية تشكل واجهة المعارضة للوجود السورى.. ولأن الحريرى استقال من الوزارة على خلفية التجديد للحود، فان القوى الرافضة للوجود السورى سرعان ما وجهت اصابع الاتهام لدمشق ولصالح فرنسا والولايات المتحدة اللتين تطالبان بانهاء الوجود السورى فى لبنان تمهيدا لتدخلهما.. وبوضوح فان جريمة الاغتيال جاءت من جهات مشبوهة للوقيعة ضد سوريا والتحريض عليها، والجريمة بحجمها ستفتح أبواباً كثيرة لن يكون سهلاً إغلاقها، وهى أبواب المزيد من الضغوط الخارجية على بيروت ودمشق عبر لبنان.. ورغم ان مثل هذه الضغوط قد بدأت عشية التمديد للرئيس، لكن المرجح ان تزداد فى المرحلة المقبلة، ويصبح الملف اللبنانى مثار اهتمام القوى الدولية اضافة الى "الكيان الاسرائيلى"، بغية إعادة تشكيل الوضع فيه بما يتلاءم والمشروع المتكامل الذى يعد للمنطقة كاملة.

وتشير العملية إلى تورط دولى لأكثر من طرف فيها ، فالذين يشيرون إلى تورط السلطة اللبنانية بها يعلمون جيدا أن تلك السلطة لم تكن وحدها مستعدة لمواجهة ما يتوقع من انقلاب عام للأحوال الأمنية والسياسية فى لبنان، وأنها – فى حال تورطها– لابد وأنها قد اطمأنت لدعم دولى معين لكى تسيطر على الأحوال المنفلتة المتوقعة بشكل شبه متأكد ، وإلا فلا يمكن أن يزيدها حادث الاغتيال إلا انتكاسا فى موقفها الذى بات مهددا.. ويعتبر الصهاينة من أكبر الأطراف المستفيدة من تلك الحادثة حيث إنها تفجر الأوضاع فى لبنان بشكل يهيئ الفرصة المناسبة للتدخل الخارجى اليهودى من جديد متذرعا بذرائع كثيرة كتدهور الحالة الأمنية وتحجيم النفوذ السورى وغيره.. كذلك قد يستفيدون بتهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين فى لبنان، وهى خطة على جدول السفاح شارون منذ توليه السلطة، كذلك هناك منظور آخر على صعيد الاستفادة اليهودية من عملية الاغتيال، كونه يعتبر بمثابة توطئة لزيادة التضييق على سوريا وربما تغريها بعمل عسكرى ضدها.

وملامح اللعبة بدأت تتضح بعد استقالة الحريرى وانتقاله الى صفوف المعارضة، حيث اتخذت هذه الأزمة بعدا دوليا عندما تبنى مجلس الأمن بناء على اقتراح من واشنطن وباريس قرارا يطالب بالرحيل السورى من لبنان وهو ما تجاهله البرلمان أو اغفل تداعياته اذ تبنى بعد بضع ساعات من صدوره مرسوما بتعديل الدستور لمرة وحيدة من أجل التمديد للرئيس لحود. ومنذ ذلك التاريخ ازدادت المواقف حدة، فبيروت ودمشق اللتان ترفضان هذا القرار أدانتا الضغوط الأمريكية خصوصا ضد سوريا التى فرضت عليها واشنطن بالفعل عقوبات بسبب اتهام الولايات المتحدة لها بدعم "الارهاب". ومع اقتراب موعد اجراء الانتخابات التشريعية فى مايو المقبل اعتبرت المعارضة اللبنانية ان القرار ١٥٥٩ يعزز من موقفها وصعدت من انتقاداتها لـ"الهيمنة السورية" فيما ادرجت السلطة وحلفاؤها الموالون لسوريا هذه المطالب فى سياق مؤامرة اسرائيلية تستهدف "استقرار" لبنان.

وبلا شك فان عملية اغتيال الحريرى فى قلب بيروت وضعت سوريا أمام خيارات أصعب مما كان متاحا أمامها قبل ذلك الحدث، وبالرغم من عدم ثبوت أى صلة مباشرة بين دمشق وواقعة الاغتيال، خاصة وأن الحادث يخالف النهج السورى المعتاد فى التعامل مع القضية اللبنانية، كما إنه ليس فى مصلحتها بحال إشعال الموقف فى لبنان فى وجود التربص الأمريكى اليهودى لها واستعداده لاستغلال تلك الحادثة كدليل إدانة كبير لها؛ فإن كل الأطراف المناهضة للوجود السورى فى لبنان (المعارضة اللبنانية والسورية

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

وواشنطن وباريس) تحركت سريعا من أجل توظيف الحدث لصالحها، سواء من خلال اتهام دمشق بالتسبب فى واقعة الاغتيال نفسها بشكل أو بآخر، أو عبر المطالبة بالتدخل العسكرى الدولى لتنفيذ قرار مجلس الأمن القاضى بانسحاب القوات السورية (١٥ ألف جندى) من لبنان، وبإعطاء بعد دولى لأزمة اغتيال الحريرى عبر المطالبة بتحقيق دولى يمكن أن يوجه لغير صالح دمشق.

والخلافات التى احتدمت بين ما يطلق عليه فى لبنان المعارضة والموالاة بلغت حدا يسمح لأى جهة خارجية -ولو بأدوات الداخل- بالتدخل فى الشأن اللبنانى.. فالموالاة تتهم المعارضة بأنها تسعى لنسف اتفاق الطائف الذى وضع حدا للحرب اللبنانية، وأنها تريد أن تستبدله بالقرار ١٥٥٩ الذى يطالب بانسحاب الجيش السورى من لبنان ونزع سلاح المنظمات الفلسطينية فى المخيمات ونزع سلاح المقاومة التابعة لحزب الله، فيما تطالب المعارضة بانسحاب القوات السورية -على مراحل أو فورا- من لبنان، واتهم الزعيم الدرزى وليد جنبلاط الموالاة بأنها "دمى" فى إشارة إلى انصياعها للسلطة السياسية السورية، فيما رفضت القوى اللبنانية الموالية للسلطة والحليفة لسوريا نزع سلاح المقاومة، والفصل بين المسارين اللبنانى والسورى فى التفاوض مع إسرائيل، كما تطالب بعض قوى المعارضة. وفى اجتماع حاشد ردت هذه القوى على أطروحات المعارضة بشدة متهمة القوى الخارجية بالتدخل فى الشئون اللبنانية، كما حصرت قضية انسحاب الجيش السورى من لبنان باتفاق الحكومتين فقط.

ويأتى الاتصال السادس التى افتعلته الأطراف المتورطة فى الحادث - والذى أعلن عنه بأن جماعة إسلامية تعلن مسئوليتها عن الاغتيال- ليشير بقوة الى الدور المخابراتى الغربى فى تنفيذ الاغتيال، الذى تبرأت منه جميع الاتجاهات الإسلامية السنية فى لبنان وغيرها، خاصة وان الحريرى كان أكبر صوت سنى سياسى معارض فى بلد يسيطر عليه الشيعة والموارنة والنصارى.. وكانت جماعة اسلامية غير معروفة قالت فى تسجيل بالفيديو انها قتلت الحريرى فى هجوم انتحارى يوم الاثنين الماضى ووصفته بانه عميل سعودى، ما جعل تنظيم "قاعدة الجهاد فى بلاد الرافدين" ينفى فى بيان له على شبكة "الانترنت" مسئولية ما سماه "التيارات الجهادية والسلفية" عن تفجير سيارة ملغومة أودى بحياة الحريرى، وقالت الجماعة التى يتزعمها الاردنى أبو مصعب الزرقاوى ان "محاولة القاء التهمة على التيارات الجهادية والسلفية فى بلاد الشام لهو محض افتراء عظيم، وأتهم البيان جهاز "الموساد الاسرائيلى" بانه وراء تدبير هذا الاغتيال، وقالت الجماعة "لقد وضح جليا أن أكبر مستفيد من اعادة اشعال الفتنة فى لبنان هى الصهيونية العالمية تمهيدا للوصاية الامريكية عليها والاجتياح الامريكى المفترض لسوريا".

وتبدو إدارة جورج بوش فى موقع رأس الحربة من هذه الضغوط، حيث سارعت فى غضون الساعات القليلة التى أعقبت الاغتيال، إلى تحريك مجلس الأمن لإصدار بيان رئاسى، بجانب توجيه الانتقاد تلو الآخر لدمشق، والمطالبة بما اسمته "تحرير لبنان من الاحتلال الأجنبى"، ثم أعقبت كل ذلك بإشارة ذات مغزى لسوريا تمثلت فى استدعاء السفيرة الأمريكية فى دمشق مرجريت سكوبى للتشاور على خلفية الواقعة، ولتحديد طريقة التعامل مع دمشق مستقبلا.

ويرى كثير من المحللين أن الإدارة الأمريكية أرادت من هذه الخطوة الأخيرة أن تقول لدمشق بوضوح؛ إنها ستبدأ فى التحرك لإجبارها على الانصياع لما تريده منها، وهو ما يثير تساؤلات المراقبين حول ما إذا كانت واشنطن ستكتفى بسلوك طريق الشرعية الدولية هذه المرة وتستبعد الخيار العسكرى.. ويأتى أيضا التصريح الذى نقل عن شارون فى التوقيت نفسه تقريبا والذى وضع فيه قائمة شروط "جديدة" لمعاودة المفاوضات مع سوريا، كمؤشر على إدراكه لأهمية هذه الورقة ومبادرته إلى إضعاف أى قيمة لها قد تبرز مجددا فى عيون واشنطن بعد اغتيال الحريرى، حيث طالب دمشق أولا بأن تسحب قواتها من لبنان تنفيذا لقرارات مجلس الأمن. وكان الكيان الاسرائيلى يقول قبلا إنه يجب على سوريا فقط أن توقف دعمها للفصائل الفلسطينية التى لديها مكاتب فى دمشق قبل أن يتسنى استئناف المفاوضات المتوقفة منذ عام ٢٠٠٠.

يأتى هذا فى الوقت الذى اتهم فيه نائب الرئيس السورى عبد الحليم خدام، المخابرات الصهيونية بالوقوف وراء عملية اغتيال الحريرى، حيث قال: "الاسرائيليون اغتالوا شعبا بأكمله ومنطقة بأكملها، ويجب ان نتوقع منهم الأسوأ".. وأضاف ان "هذه الجريمة استهدفت الحلم والأمن والسلم اللبنانى، ولا شك انها شكلت زلزالا من الصعب تدارك اثاره ونتائجه الا فى تماسك اللبنانيين وفى وحدتهم حول القيم والمبادئ والافكار والسلوك التى كان يتميز بها الشهيد رفيق الحريرى".. وعلى نفس الخط أشار زعيم «حزب الله» اللبنانى السيد حسن نصر الله الى الدور الصهيونى فى تدبير الحادث.. ايضا صرح عضو الكنيست الإسرائيلى عزمى بشارة بأن الاجهزة الاسرائيلية قد تكون وراء العملية، مستبعدا فى ذات الوقت أن تكون سوريا من نفذها، وأنه "لا يلغى احتمال تورط إسرائيل أو الولايات المتحدة فى العملية".

وإزاء التحرك الامريكى- الاسرائيلى بادرت سوريا بالتلويح بورقة لواشنطن تجلى فى الزيارة التى قام بها رئيس الوزراء السورى إلى طهران الأربعاء الماضى واجتماعه مع المساعد الأول للرئيس الإيرانى الذى أعلن عن استعداد بلاده "مساعدة سوريا فى كافة المجالات لمواجهة التهديدات" التى تواجهها، كما أعلن عن "بناء جبهة مشتركة" لهذا الهدف.. وبذلك تكون سوريا قد فتحت كل النوافذ المتاحة أمامها حتى لا تدخل إلى النفق المظلم الذى يلوح أمامها.

وفى سياق متصل قال البيت الأبيض إن إيران وسوريا "تسيئان فهم" المجتمع الدولى إذا كانت دعوتهما إلى إقامة "جبهة موحدة" ضد التهديدات الخارجية تستهدف الولايات المتحدة، وفى الوقت ذاته نفت دمشق أن يكون لها أى دور فى الهجوم الذى أودى بحياة الحريرى، وقالت أيضا إن جبهتها المشتركة مع إيران ليست تحالفا ضد واشنطن.

ولم تخف الصحف اللبنانية، خشيتها على مستقبل البلاد بعد الحادث، الذى وصف بأنه "ضخم ومؤثر" على المستويات السياسية والأمنية، وتوقعت أن ينتقل الجدل السياسى حول الحياة السياسية والديمقراطية فى لبنان، من أروقة الساسة إلى ساحات العسكريين، بعد الحادث "الصدمة".. ووصفت وسائل الإعلام اللبنانية على اختلافها، الحريرى بأنه "شهيد الوطن"،

ولوحظ من خلال رصد الصحف أنها عبرت عن مخاوفها السياسية والأمنية المتعلقة بمستقبل لبنان، دون أى تحفظ أو موارأة، وتحدثت فى افتتاحياتها ومقالاتها الرئيسة بوضوح عن "المستقبل المجهول" و"المنعطف الخطير"، و"شفا الانهيار"، وهى المصطلحات التى كان يتم تجنبها عند الحديث عن أى حادث أو جدل ينشب داخليا أو إقليميا.

■ إيهاب حسن
h_ihab@yahoo.com

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية